



24 محرم 1436 هـ ـ 17/ 11 / 2014 م

www.ommaty1401.blogspot.com

خلق الله الإنسان.. وجاء التقسيم الإلهي لهذا الإنسان إما مؤمن، وإما كافر.. فقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[التغابن: 2] وجعل الجزاء في الآخرة على أساس هذا التقسيم: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾[الشورى: 7] وخلق الإنسان شعوباً وقبائل مختلفة الألسن والألوان: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[الحجرات: 13] ﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[الروم: 22] وجعل معيار التفاضل بين الخلق والشعوب والقبائل هو: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات: 13] فأصل التمييز بين البشر والأفضلية بينهم على أساس "**الإيمان والتقوى**" وأما الجنس والقوم واللون والانتساب لحدود أرض.. بل حتى الانتساب للرحم وروابط الدم.. لا قيمة لها أمام "الإيمان والتقوى"، فهذا هو الأصل، وأما الحب الفطري للقوم والأرض والقبيلة والعشيرة وحب الرحم والأبناء كل أولئك توابع للمعيار الأصلي .. "الإيمان والتقوى"، ولأن الإنسان يميل بفطرته إلى حب الرحم جعل لهم أولية في القربى: ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾[الأنفال: 75] لكن على "شرط الإيمان" أي بعد الإيمان لا قبله..

بل وبعد الإيمان إذا أصبح الرحم والولد والأهل عقبة في الجهاد في سبيل الله، كان ذلك هو المحذور والفتنة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة: 24]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[التغابن: 14]

وعند الحساب: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الممتحنة: 3] ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾[المؤمنون: 101]

وليس للإنسان إلا ما قدم: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾[مريم: 95] ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾[النجم: 39-40]

فالإيمان والكفر هو الأصل في حياة البشر.. وهو الذي يُقسم الإنسان إلى "مؤمن" و"كافر"، ويقسم الأرض إلى "ديار إسلام" و"ديار كفر".. ويقسم الناس في الآخر إلى أهل الجنة وأهل النار.

وجنسية المسلم هي: "الإسلام" ووطنه هو: "ديار الإسلام".. والأرض لا تُقدس أحداً، إنما يُقدس الإنسان عمله.

يظن الإنسان – خطأً أو جهلاً – أنه يمكن أن تنفعه علاقاته أو نسبه أو أرضه أو ماله في حقيقة الإيمان.. وكذلك على العكس يظن أن علاقاته أو نسبه أو أرضه قد تحول بينه وبين الإيمان !

إن الله – جل جلاله – كرّم الإنسان، وأعطى للإنسان الحرية "أمانة الاختيار".. ولم يجعل هناك حائلاً بينه وبين الله! وجعل الإيمان.. حقيقة متجردة بعيدة عن ما ليس للإنسان فيه دخل واختيار كلونه أو قومه أو جنسه أو الأرض التي وُلد فيها.. وجعل التزكية مقدورة في إمكانية كل إنسان، لا تحول العوائق المادية دونها .

ولأن التعلق بالآباء وبالأرحام وبالقوم وبالأرض والعشيرة مسألة فطرية.. جاء القرآن الكريم ليجلي هذه الحقيقة من وجوه عدة، ليؤكد للإنسان أن "قضية الإيمان" هي الأصل.. وهي حقيقة متجردة.. لا علاقة لها بنسب أو حسب أو قوم..

ففي قصة نوح – عليه السلام – وبعد مشهد غرق الابن، وبعد أن نجى الله نوح والذين آمنوا معه، نادى ربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود: 45] ويأتيه الجواب القاطع: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود:46] ويطلب النبي الكريم المغفرة والرحمة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: 47]

آيات لا تحتاج إلى توضيح.. " إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ " فمن كفر سقطت عنه وشيجة القربى، وصلة الدم، وعلاقة الرحم.. تحول إلى شيء باطل لا قيمة له كما هي طبيعة الكفر، وتبقى وشيجة الإيمان، وعلاقات التقوى هي الأصل بين "أهل الإيمان" فهنا عمل التقسيم الإلهي: "فمنكم كافر، ومنكم مؤمن" ولا قيمة لعلاقات الدم والنسب حتى ولو كانت بين الأب والابن.. وحتى ولو كان هذا النبي هو نوح – عليه السلام – الذي دعى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، والذي هو من أولي العزم من الرسل!

ويضرب القرآن صورة أخرى للذين آمنوا والذين كفروا:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: 10-11]

يضرب القرآن الكريم مثلاً للذين كفروا بزوجات النبيين "نوح ولوط" ويضرب مثلاً للذين آمنوا "زوجة فرعون"! الذي قال: "أنا ربكم الأعلى"!!.. يا الله ! إنه العدل والرحمة والحكمة الإلهية.. التي تُجزي كل إنسان على فعله ونيته وجهده وجهاده، وحبه وتعلقه بالله.. لم ينفع امرأة نوح ولوط كون زوجيهما من الأنبياء.. فهذه الصلة لا قيمة لها في حقيقة الإيمان.. الذي على الإنسان أن يأتيه ويشعره ويستجيب له القلب، وعلى العكس.. امرأة فرعون في قلب قلعة الكفر.. ولكن متى انفتح قلبها على نور الله، ومتى اجتهدت لتعرف الله، وتؤمن به، لن يحول بينها وبين الله شيء.. مهما كان، ولو كان الفرعون ذاته!

وعاب القرآن الكريم على الذين يتبعون آبائهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 22]

إذ تقديس الآباء وما يتبعه من تقديس القبيلة والعشيرة، والتعلق بالأرض والوطن.. مهلكة للإنسان إذا كان هؤلاء الآباء على غير هدى الله.. يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة: 23]

فالله – سبحانه – الذي خلق الإنسان.. جعل الانتساب للإيمان وحده، وهو جنسية المسلم.. وهو أساس الولاء والبراء، وليس الأهل، وليس الأرض، وليس الجنس، وليس اللون.. فالإنسان أرقى من أن ينتسب لشيء مادي فاني محدود، إنما ينتسب إلى لأصل الذي صار به إنساناً.. إذ أنه في حالة كفره يفقد إنسانيته ويتحول إلى بهيمة كالأنعام: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: 12] ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179]

فمجتمع الإيمان هو: "مجتمع الإنسان"، ومجتمع الكفر هو: "مجتمع الأنعام".. ولا يمكن للإنسان أن يعيش في مجتمع الأنعام بحجة "القوم والعشيرة والأرض والجنس واللغة واللون...إلخ" فكل هذه الأمور لن تغير في حقيقة مجتمع الأنعام شيء!

وعندما يغيب معيار الإيمان.. ويغيب التقسيم الإلهي في حياة الناس.. يُقدس المجتمع حينها القوم والعشيرة والأرض، وتتحول هي المعيار، ومحل الولاء والبراء.. وتخرج صور لا تليق بالإنسان من: العصبية للقوم، وللأرض، وللعشيرة، وللغة، وللذات التي تتورم وتورث الكبر الذي يؤدي بالإنسان إلى جنهم.. كما دفعت بإبليس من قبل !

وعندما جاءت البعثة المحمدية برسالة الإسلام العالمية.. كان هذا التقسيم الإلهي: "إما كافر، وإما مؤمن".. هو أول اصطدام مع المكذبين.. إن الرسالة جاءت لتحطم الفروق كلها بين البشر: الفقر والغنى واللون واللغة والجنس والحسب والنسب وروابط الدم وحدود الأرض.. جاءت لتُلغي كل هذه الفروقات لتبقي على فرق واحد.. الذي قال به خالق الإنسان، والحياة، والأرض، والشعوب، والقبائل وهو: "الإيمان والتقوى".. ويفتح المجال للإنسان أن يرتقي في إيمانه وتقواه لله سبحانه.

اصطدم القوم بهذه الدعوة صدمة عنيفة ! وأين تذهب الأحساب والأنساب والقبائل وعلية القوم؟ وأين يذهب التفاخر والسيادة والمصالح والتسلط على الناس ؟

إن أبا الحكم وهو "أبو جهل" وكان يُلقب بأبي الحكم لفطنته وذكاءه..! أعماه الكِبر عن الإيمان، وأخذته العصبية الجاهلية والاعتزاز بالأنساب لأضيق زاوية.. فيقول عن النبي ﷺ: "وَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُ إِنَّهُ لَنَبِيٌّ، وَلَكِنْ مَتَى كُنَّا لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ تَبَعًا؟!" [تفسير ابن كثير/ج3] هلك في الدنيا والآخرة.. لأنه لا يريد أن يكون تبعاً لبني "عبد مناف"!!

قال رسول الله ﷺ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى**" [مسند أحمد بن حنبل/ 22977]

وقال: "**النَّاسُ مُسْتَوُونَ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلا بِتَقْوَى اللَّهِ**" [الفوائد المنتقاة/ 43]

وكان الكفار وقتها يعيبون على الإسلام بقولهم: "يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا" [السيرة النبوية/ابن هشام] "جَاءَ بِقَوْلٍ هُوَ سِحْرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ" [التحرير والتنوير/23] نعم.. هو كذلك، وتجاهل القوم أن التفرقة على أساس "الإيمان" الذي هو أصل ومعنى الإنسانية.. أكرم للإنسان من التفرقة على أساس القبيلة والعشيرة وحدود الأرض.. وأن هذه التفرقة أطلقت للإنسان آفاق الرقي والسمو مهما كان شأنه وظروفه، ودفعته لإطلاق طاقاته.. وتفجير ينابيع الخير فيه.. بعيداً عن ظروف نشأته!

فخرجت أروع أمثلة الإنسانية.. كبلال – رضي الله عنه – ذلك العبد الحبشي.. الذي تحول بـ "الإيمان" إلى صحابي من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعلى العكس عمرو بن هشام من سادات بني قريش.. تحول بالكفر إلى أحقر وأصغر كافر ولُقب بـ "أبي جهل".. وأما عم النبي ﷺ فجاء فيه القرآن: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾[المسد: 1-3]

وتحول ذلك المهاجر الفارسي.. سلمان – رضي الله عنه – إلى أن يقول فيه النبي ﷺ: "**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**" [المستدرك على الصحيحين/3 : 595]

بل يحذر النبي ﷺ أهل بيته وعشيرته من أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً: "**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ، سَلِينِي بِمَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** " [صحيح مسلم/209]

إن الأمر أشبه بساحة سباق.. يقف الناس كلهم.. كلهم على خط البداية متساوين لا فرق بين ألوانهم وأجناسهم وأنسابهم ولغاتهم، وفي خط النهاية "الإيمان والتقوى".. والأسبق بقلبه وعمله إلى الإيمان والتقوى هو الأكرم عند الله، فقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : 26] ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : 21] لا شروط في هذا السباق تتعلق بجنسك أو لونك أو أرضك أو قومك.. فقط ابتغاء رضوان الله، والله أولاً وآخرا هو الذي يهدي: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة: 15 – 16] فهذا الكتاب هو النور الذي يضيء ساحة هذا السباق نحو الجنان.. ولن يهم صورتك وهيئتك.. المهم ما في قلبك: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ** " [صحيح مسلم/ 2565]

ولما وقعت صورة من صور العصبية الجاهلية.. أمام النبي ﷺ غضب غضباً شديداً، إذ هذه الصورة تقدح في معنى "رسالة الإسلام العالمية" وأنها لا تفرق إلا على أساس التقسيم الإلهي: "إما كافر، وإما مؤمن".. وإليكم هذا المشهد:

"فانْضَمَّتِ الْأَوْسُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَالْخَزْرَجُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، عَلَى دَعْوَاهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِي مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى جَاءَهُمْ، فَقَالَ: "**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهَ اللَّهَ، أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمُ اللَّهُ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَكُمْ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا؟**"، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَأَلْقَوُا السِّلاحَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَبَكَوْا وَعَانَقَ الرِّجَالُ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ" [جامع البيان/ 5 : 627]

وهذه العصبية الجاهلية ربما قد تحتاج إلى وقت طويل في المعالجة، وتأكيد مستمر، واصرار على بيانها؛ لتطهير النفس من كل ظنون تخص أفضلية ما بسبب أرض أو قوم أو عشيرة أو حتى علاقة نسب أو دم مع الأنبياء، إذ الإنسان أحياناً يقيس المسألة بحدود تجربته القاصرة.. كونه يحابي قومه أو من يحب أو عشيرته فيحسب أن الإسلام يمكن له أن يحابي أحداً !

وعلى أساس "الإيمان والتقوى" طهّر الإسلام القلوب من أي جاهلية أو عصبية أو محاباة أو ظنون بأفضلية لشيء غير "الإيمان والتقوى".. فجعلها على هذه الصورة الوضيئة العظيمة.. التي قل مثيلها في تاريخ البشر..

وجعل العدل قيمة خالصة وحق خالص لله جَلَّجَلَالُهُ.. لا دخل للحب والكره، والنسب والقربى به: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : 8] ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الأنعام : 152]

وعلى هذا الأساس قامت دولة الإسلام، وحضارة الإسلام.. تلك الحضارة الإنسانية العظيمة، التي أعلت من قيمة الإنسان، وأطلقت طاقات الإنسان.. ولم تضع أمامه حواجز وعقبات الجنس والقوم وحدود الأرض... إلخ، كل إنسان.. في كل الأرض يستطيع أن يكون كريماً ووجيهاً بإيمانه وتقواه.. بل ويصل إلى إمارة المسلمين ما أقام فينا كتاب الله.. قال رسول الله ﷺ- في حجة الوداع - : **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ، فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ "** [جامع الترمذي/ 1706]

وهذا أسامة بن زيد - وهو في سن الثامنة عشر - أبوه زيد بن حارثة خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولّاه النبي ﷺ قيادة جيش المسلمين المتوجه لغزو الروم في الشام.. قال ابن عمر : أمر رسول الله ﷺ أسامة ، فطعنوا في إمارته ؛ فقال: "إن يطعنوا في إمارته ، فقد طعنوا في إمارة أبيه ، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلي ، وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إلي بعده" [سير أعلام النبلاء/الذهبي]

وكان من يتولى من أمر المسلمين شيئاً ويفعل أمراً محاباة لأحد فعليه لعنة الله! قال رسول الله ﷺ: **"مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ "**[مسند أحمد بن حنبل/ 22]

وفي حجة الوداع والنبي ﷺ يودع أمته، فيقول: **"أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ"** [السنن الكبرى للبيهقي، ج5]

❊ ❊ ❊

وانطلقت دولة الإسلام تسيح في الأرض، بما تحمله من نور الكتاب، لتُخرج – من شاء الله – من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة..

انطلقت في كل الأرض.. لا ترى حدوداً، ولا تعرف أقواماً، ولا ترى سوى "الإنسان" الواجب تحريره من كل عبودية لغير الله.. انطلقت تحمل شعلة الهداية، وتأخذ الناس نحو طريق النور، وصراط الله المستقيم.. ولا تُفرق بين أحد إلا بالإيمان والكفر.

ومضت شعلة الخلافة.. حتى وصلت للصين شرقاً، والأندلس غرباً، والعالم مُقسم بين بلاد المسلمين.. وبلاد الكفر.. ديار الإسلام، وديار الكفر! جنسية الإنسان هي دينه، وهي أساس الولاء والبراء.. والسلم والحرب.

نشأ مرض القومية أي: الاعتزاز بالجنس والأرض، وجعل الولاء والبراء، والانتساب لهم.. عندما هربت أوربا من الكنيسة بعد الجرائم التي ارتكبتها، والظلم الذي وقع على الشعوب منها بعد تحالفها مع الإمبراطور، وقسمت الشعوب إلى سادة وعبيد! فقامت الثورات ضد الكنيسة، واستبدلت النصرانية بالعلمانية.. وجعلت الانتساب لـ "القومية".. وجعلت الديانة شيء تابع للقوم، والوطن هو: "حدود الأرض، والجنس، واللغة، والقوم"! وصار هذا الانتساب بديلاً عن الدين! فلم تعد النصرانية أساس الولاء بل حدود الأرض.. فصار: الفرنسي والألماني والبريطاني...إلخ.

ومع سقوط الخلافة العثمانية.. وهي ديار الإسلام التي كانت تجمع المسلمين في وطن الإسلام! تم تقسيم الدولة الواحدة إلى عدة دويلات – كما حدث في أوربا – وبعد أن كان انتساب المسلمين للإسلام، فهو الدين والوطن، وهو أساس الولاء والبراء.. أصبح الانتساب لحدود الأرض، والاجتماع على أساس القوم؛ فكان التقسيم: مصري – عراقي – سوري – أردني – مغربي – تونسي...إلخ بل ومازال التقسيم مستمراً !

وصدق رسول الله ﷺ.. في اتباع هذه الأمة سنن أهل الكتاب، حتى في التقسيم على أساس "القومية" قَالَ: **"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ"** [صحيح البخاري/ 3456]

وهذه الصورة من التقسيم، ومن الاجتماع، ومن الانتساب.. صورة جاهلية تماماً، ومخالفة تماماً لحقيقة رسالة الإسلام، حتى ولو كان دين هذه الشعوب هو الإسلام.. فالإسلام فيها تابع للوطن! بل ولا يتحرج البعض أن يقول: "إن الوطن مُقدم على الدين"، أو يقول: "الدين لا علاقة له بسياسة الوطن.. فالوطن للجميع"!!

وبطول عمر "الدولة القومية" نشأ "مرض القومية" عند أجيال المسلمين من خلال التعليم فصار مادة تُدرس لأبناء المسلمين منذ نعومة أظفارهم "التربية القومية أو الوطنية" وغرسوا فيهم الاعتزاز بالتراب، وبحدود الأرض، وملؤوا قلوبهم بالعصبية الجاهلية لقومهم وذواتهم.. فخرجت فيهم "ثقافة القطيع" وصار الولاء والبراء على أساس القوم، لا على أساس الدين..! وهذا من أخطر أمراض الجاهلية، ومرض القومية هو من أوائل الأمراض التي عالجتها رسالة الإسلام، ومن أوائل العقبات التي حطمها الإسلام!

إن الأصل في الاجتماع الإنساني هو "الدين".. وهو أساس الانتساب، وهو الذي يُنشأ الأوطان! وليس هو تابع للأوطان.. فالإسلام يزيل الحدود والفروق ويمحق القوميات والعرقيات.. ويتجرد فيه الناس لمعيار واحد هو "الإيمان والتقوى".. وليس معنى هذا أن الإسلام يُجبر أحداً على اعتناقه.. فلا إكراه في الدين، ولكن يميز بين الناس على أساس "الدين" ويُفرق بينهم، ويتعامل معهم على هذا الأساس.. ويُجبر الناس على الخضوع لحكمه وشرعه ونظامه..

والإسلام دين عالمي.. ليس حكراً على العرب! بل إن هؤلاء العرب إذ لم يجاهدوا في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله.. وليكون الدين "كله" لله؛ استبدلهم الله: ﴿ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[التوبة: 39]

والمسلم عموماً "يُجاهد" لإزالة سياسات "الدولة القومية" التي أنشأها الاحتلال الإنجليزي والفرنسي، و"يجاهد" لتوحيد الأمة المسلمة، و"يجاهد" لإقامة الشرع، على أساس الولاء للإسلام وأهله، والبراءة من الكفر وأهله.. ليكون الدين "كله" لله، وليكون الدين هو معيار وأساس "اجتماع الأمة".

❊ ❊ ❊